

المجلد

الجزء العاشر من المجلد الثاني

شوال سنة ١٣٢٥ الموافق نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٠٧

ضد زوال المتبى والمعلمين

لسان الديب ابن الخطيب

٧١٣ - ٦٧٧

قلما يتأق لعالم ولي المناصب الرفيعة في الدول ان يبارك له في وقته فيجمع على أحسن وجه القيام باعبائها الى الاعمال العلية . والامارة والعلم قلما يجتمعان وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . من اجل هذا رأينا مثل ابن حزم وابن الهيثم يزهدان في الوزارة بل يحتالان الى الخلاص من توليها علماً منهما بانها صارفة لما عن التمحض لخدمة العلم والتفوق على التصنيف . وقل في رجال هذه الامة من جمعوا بين المزيين ولاية الاعمال وصرف اوقات الفراغ في التصنيف ونجحة ملكة العلم على ما كان شأن القاضي الفاضل ولسان الدين ابن الخطيب فترجمنا هذا هو احد مفاخر الاندلس ونوابغها علماً وعملاً لم تلبه اعمال الوزارة عن النظر في علوم كانت السبيل في وصوله اليها وساعده زيادة على ما كان يحافظ عليه من اوقاته انه كان مبتلىً بالارق بسهر الليل الا اقله ولذلك قيل له ذو العمرين لانه كان يعمل في ليله كما يعمل في نهاره . فلا عجب بعد هذا ان عدت مصنفاته بستين مصنفًا لو خلف بعضها عالم انتقطع العلم حجة لعدت غريبة في بابها فما بالك يا ابن الخطيب بتولى امور الناس والاندلس قد اشرفت على السقوط والفتن بين الامراء على ساق وقدمه والندسات عليه من كل جهة

يكتب ويفكر وتد ترجمه ابن خلدون فقال : اصل هذا الربل من لوشة على مرحلة من غرناطة كان له بها سلف معروفون في وزارتها وانتقل ابو عبد الله الى غرناطة واستخدم للملك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد هذا بفرناطة وقرأ وتأدب على مشيخته واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل واخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب والتجمل الادب وأخذ عن أشياخه وامتلا حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجارى فيها .

وامتدح السلطان ابا الحجاج من ملوك بني الاحمر وملاً الدولة بمدايحه وانتشرت في الآفاق قدماء فرقاء السلطان الى خدمته واثبتته في ديوان الكتاب يبايه مرؤساً بابي الحسن ابن الحباب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية ولا هالك ابن حباب سنة تسع واربعين وسبعائة ولى السلطان ابو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رئاسة الكتاب يبايه وثناه بالوزارة واقبه بها فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالشاركت فجمع له بها أموالاً وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ بأحد من قبله وسفر عنه الى السلطان ابي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزياً بأبيه السلطان ابي الحسن فغلى في اغراض سفارته . ثم هلك السلطان ابو الحجاج ويبيع ابنه محمد بالامر لوقته فأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لايه واتخذ لكتابه غيره وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره ونشركا في الاستبداد معاً . ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً الى السلطان ابي عنان مستدين له على عدوم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس وفقهاها استأذنه في انشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وانشد وهو قائم اياتاً اهتز السلطان لها فأذن له في الجلوس وقال له قبل ان يجلس : ما ترجع اليكم الا بجميع عطائهم . ثم اقبل كاهلهم بالاحسان ورددهم بجميع مطالبهم . قال القاضي ابو القاسم الشريف : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا . وبعد ذلك اعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبته الى ان شفع فيه ثم سار في ركاب السلطان الى وادي آش قادمين على السلطان ابي سالم فارغد هذا عيش ابن الخطيب في الجراية والاقطاع ثم استأذنه السلطان في التحول الى جيات مراكش والوفود على آثار الملك بها فأذن له وكتب الى العمال بانحافه فبادروا في ذلك وحصل منه على حظ وعند ماسر بسلا في قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان ابي الحسن وانشد قصيدته على روية الرائد الموصولة يرثيه ويستشير به استرحن ضناه .

ان بان منزله وشبخت داره قامت مقام عيانه اخباره
تسم زمانك عبرة او غيره هذا نراه وهذه آثاره

فكتب السلطان ابوسالم في ذلك الى اهل الاندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا
متنبذاً عن سلطانه طول مقامه بالمدوة ثم عاد السلطان محمد المنذر الى ملكه بالاندلس
فاستقدم ابن الخطيب من سلا ورده الى منزلته كما كان . وبعد ذلك فصل عن الوزارة
ثم أعيد الى مكانه من الدولة من طوبىه وقبول اشارته وادركته الغيرة من عثمان بن يحيى
مقدم القوم في الدولة ونكر على السلطان الاستكفاء به والتخوف من هؤلاء الاعياص على
ملكه فغذره السلطان واخذ في التدبير عليه حتى نكبه واباه واخوته واودعهم المطبق ثم
غربهم بعد ذلك وخلا لابن الخطيب الجوى وغلب على حوى السلطان واخذ ودفن اليه
تدبير المملكة وخطب يئنه بدمائه واهل خنوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت
اليه الوجوه وعلقت عليه الآمال وغشي بابيه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان
وحاشيته فنوافقوا على السعاية فيه وقد صم السلطان عن قبولها وما الخبر بذلك الى ابن
الخطيب فشم عن ساعده في التفويض عنهم .

وفي خلال ذلك استحسنت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من التمدح فيه والسعاية
وربما خيل ان السلطان مال الى قبولها وانهم قد احفظوه عليه فاجمع التحول عن الاندلس
الى المغرب واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية وسار اليها في لمة من فرسانه ومعه
ابنه علي الذي كان خالصة السلطان وذهب لطيبته فلما حاذى جبل الفتح فرضة الجاز الى
المدوة مال اليه اذ ندد بين يديه فخرج قائد الخيل لتلقيه وقد كان السلطان عبدالعزيز
ملك المدوة قد اوعز اليه بذلك وجيز اليه الاضطراب من حينه فاجاز الى سبتة وتلقاه بها
بانواع التكرمة وامثال الاوامر ثم سار بقصد السلطان فادتمرت له الدولة واركب السلطان
خاصته لتلقيه واحله يجلسه بمحل الامن والغبطة ومن دولته يتكبان الشرف والعزة واخرج
لوقته كاتبه ابا يحيى بن ابي مدين سفيراً الى الاندلس في طلب اهله وولده فجاء بهم على
اكمل الحالات من الامن والتكرمة

ثم لفظ المتنافسون له في شأنه واغروا سلطانه بتبع عثراته وابدوا ما كان كامنًا في نفسه
من سقطات دابته واحصاء عصابته وشاع على السنة اعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة
احصوها عليه ونسبوا اليه ورفعت الى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن فاستبرأها وسجل
عليه بالزندقة وراجع صاحب الاندلس رأيه فيه وبعث القاضي ابو الحسن الى السلطان
عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات وامضاء حكم الله فيه فصم لذلك وانف لدمته

ان تختر وجواره ان يردى وقال لم يهلاً انتقمتم وهو عندكم وانتم عالمون بما كان عليه واما انا فلا يخلص اليه بذلك احد ما كان في جوارى ثم رفر الجراية والاقطاع له ولبيته وابن جاء من فرسان الاندلس في جلته فلما ملك السلطان عبدالعزيز سنة اربع وسبعين سار هو في زكاب الوزير ابي بكر بن غازي القائم بالدولة فنزل فاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظ له القائم بالدولة الرسوم التي رسمها السلطان المتوفى . ولما استولى السلطان ابو العباس على البلاد الجديد دار ملكه قبض على ابن الخطيب واودعوه السجن وطبروا بالخبر الى السلطان ابن الاحمر فبعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب وهو ابو عبد الله بن زمرك فقدم على السلطان ابي العباس واحضر ابن الخطيب بالمشورة في مجلس الخاصة واهل الثورى وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه فغضب عليه التكبير فيها فوج ونكل وامتنع بالمداب بشهد ذلك الملائم ثم تلى الى محبته واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات السجدة عليه وافتي بعض الفقهاء فيه ودس سليمان بن داود رديف وزير السلطان لبعض الاوغاد من حاشيته بقتله فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانقة جاؤا في لقيف اخدم مع سفراء السلطان ابن الاحمر وقتلوه خنقاً في محبته واخرجوا شلوه من القيد فدفن ثم اصبح من القيد على شافة قبره طريحاً وقد جمعت له اعدوا واضمرت عليه ناراً فاحترق شعره واسود بشره واعيد الى حفرته وكان في ذلك انتهاء مخنه .

قال ابن خلدون : وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم التكبير فيها عليه وعلى قومه واهل دولته والله الفعال لما يريد . وكان عفا الله عنه ايام امتحانه بالسجن بتوقع مصيبة الموت فقيش هوائه بالشعريكي نفسه ومما قال في ذلك .

بعدنا وان جاورنا البيوت	وجشا بوعظ ونحن صموت
وانفاسنا سكت ذقعة	كجبر الصلاة تلاء القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً	وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شمس سماء العلاء	غربن فناحت عليا البيوت
فكم جدلت ذا الحسام الطبا	وذو البخت كجدلته الجنوت
وكم سيق للتير في خرقة	فتى ملئت من كساء القنوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	بوفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منك له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

قلت هي اهراء السياسة صيرت لسان الدين الى ما صيرته اليه وما عدوه عليه ، خالف به الشرع وجرى مع الفلسفة فانما هي حجة طالما كثر التوكيد فيها منذ ضعف العلم في هذه

الامة ولو صغ ما زعموا اما كان الاجدر بالامناء على الدين وهو في عهد عزه ان يغيروا عليه وينذوه عن حى سلطانهم لئلا يستشري افساده للعقائد بما نشره من المصنفات . والقليل الذي انتهى اليها مما خطه يمين لسان الدين بدل ولا جرم على حرية في الفكر لم يحاب معها ولم يداج ولعلها هي التي عدها اعداؤه له من الهنات قال في ترجمة الحاكم باديس بالاندلس في كتابه الاحاطة بعد ان وفاه حقه من الوصف وانه من الملوك الجبارة فائق الرأي خليع الرمن : وقد ادال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته وقدم العيد بتعرف اخبار جبروته وعتوه على الله سبحانه لما جبلت عليه من الاتقياد للاوهام والانصياع للاغالييل فعلى حفرته اليوم من الازدهام بطلاب الخوانج والشفاء من الاسقام حتى اولو الدواب الوجيمة ما ليس على قبر معروف الكرخي وابي يزيد البسطامي . واليك كيف وصف في مكان آخر جعفر بن احمد الخراعي الفرناطي من مشايخ الطريق قال : ان قومه خرجوا من وطنهم عند تغلب العدو على شرق الاندلس فتنزلوا في ربض اليازير جوفى المدينة وارتابوا وتأنلوا وبنوا المسجد العتيق وابقاموا رسم الارادة يرون انهم تمسكوا من طريق الشيخ ابي احمد باثره فلا يبنون بيته ولا يقطمون اجتماعاً على حالم المعروفة من تلاوة حسنة وايتار ركعات ثم ذكر ثم ترجيع ايات في طريق التصوف مما ينسب للحسين بن الحلاج وامثاله يعرفونها منهم مشيخة قوالون هم نخول الاحمة وصراديك (لعله صناديد) تلك القطيعة يعيرون بلا بلهم فلا ينشون ان يحى وطيسهم ويخلط مرعيهم بالحمل فيرقصون رقصاً غير مساق للابقاع الموزون دون النجمال (؟) الغالية منهم بافراد كلمات من بعض المقول ويكر بعضهم على بعض وقد خلعوا خشن ثيابهم ومرقعات قباطيسهم ودرانيكهم (١) فيدوم حالم حتى يتصيبوا عرفاً وقوالهم يحركون فنورهم ويذمرهم روحهم يخرجون بهم من قول الى آخر ويصلون الشيء بمثله فرجبا اخذت نوبة رقصهم بطرفي ليل التمام ولا تزال المشيعة لهم يدعونهم ويحاجون بهم الى منازلهم وربما استدعاهم السلطان الى مصره محمضاً لطائف نعمه باخشيتانهم مبدياً التبرك به . الى ان يقول فتسقط فبا بينهم بقلته سماه اي الزمار اخوة الطريق وهم اهل سداجة وسلامة اولو اقتصاد في ملبس واتقيات بادنى بلغة وهم في التعصب نزعاً خارجية واعظهم ما بين مكتسب متسبب وبين معالج مدره ومرجع حياكة (؟) وبين اظهرهم من الذعرة والعهاليك كثير . والطرق الى الله تعالى على عدد انفس الخلائق جعلنا الله مما قبل سعيه وارضى ما عنده ويسره ليسرى .

(١) الدرنيك والدرنونث . ب من الثياب والبسط جمع درانك ودرانيك والقباطي

و قد ترجم لسان الدين نفسه في آخر كتاب (١) الاحاطة ونقل عنه المقرئ في سبب
 نكحته ما يأتي مختصاً : ولفظي يعني اياه عبدالله عالي الدرجة شهير الخطة مشمولاً بالقبول
 مكنوناً بالعناية فقلدي السلطان سره ونا يستكمل الشباب ويجمع السن معززة بالقيادة
 ورسوم الوزارة واستعملني في السفارة الى الملوك واستنابني بدار ملكه ورسى الى يدسي
 بخاقمه وسيفه واثنتني على صوان حضرته وبيت ماله وسجوف حرمة ومقل امتناعه . وناهلك
 السلطان ضاعف ولده حظوتي واعلى مجلسي وقصر المشورة على نصحي الى ان كانت عليه الكائنة
 فاقندي في اخوه التغلب على الامر فجل الاختصاص وعقد القلادة ثم حمل اهل الشخاف من
 اعوان ثورته على القبض علي فكأن ذلك ونقبض علي ونكت ما ابرم من اماني واعنتلت بحال
 ترفيه وبعد ان كبت المنازل والدور واستكثر من الحرس وختم على الاعلاق وابررد الى ما
 ناه (?) واستؤصلت نعمة لم تكن بالاندلس من ذوات النظائر ولا ربات الامثال في نجر
 الغلة وفرهة الحيوان وغبطة المقار ونظافة الآلات ورفع الثياب واستجادة العدة ووفور
 الكتب الى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والدخيرة والمضارب والابنية واكشحت
 السائمة وثيران الحرث وظهر الحولة وقوام الفلاحة والخييل فاخذ ذلك البيع وناهيتها الاسواق
 وصاحبها الجبس ورزاتها الخونة وشمل الخاصة والاقارب الطلب واستخلصت القرى واعملت
 الخيل وطوقت الذنوب امد الله تعالى بالعون وانزل السكينة وانصرف اللسان الى ذكر الله
 تعالى وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها الحال حسبا قلت
 عند اقالة العثرة واخلاص من الهفوة

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقدي المتصور من آل عامر

ووصلت الشفاعة في مكتبة بخط ملك المغرب وجعل خلاصي شرطاً في العقدة
 ومسالمة الدولة فانقلت محبة سلطاني المنصور الحق الى المغرب وبالغ منكر في بري : منزلاً
 رحباً وعبثاً خفصاً واقطاعاً جما وجراية ما وراهها مرمرى وجعلني يجلسه صدرًا ثم اصعب
 قسدي في تهيمه الخولة بمدينة سلا منوه الصكوك منها انقراض مفقداً بالها واخلع محوّل
 المقار موفور الحاشية محلى بيني وبين اصلاح معادي الى ان ردة الله تعالى على السلطان
 امير المسلمين ابي عبدالله بن امير المسلمين ابي الحجاج ملكه وصير اليه حقه فطابني بوند

(١) ان شئت التوسع في اخبار لسان الدين ومشايخه ونشأته وشعره ونشره نعمليك بنا كتبه
 المقرئ في القرن الحادي عشر من كتاب خصه به وسماه نفع الطيب من غصن الاندلس
 المرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب وهو في اربع مجلدات مشهور بين الادباء
 ومطبوع مرات

ضربته وعمل في القدوم عليه بولده احكته ولم يوسعني عنراً ولا فسج في الترك مجالاً
 تقدمت عليه بولده وقد ساء بامساكه رهينة ضده وانقص رهينة الفتح بعده على حال من
 القشف والزهد فيما بيده وعزف عن الطبع في ملكه وزهد في رفته حجاباً قلت من بعض
 المقطوعات :

قالوا خدمته - دعاك محمد فانتهبا وزهدت في التوبه

فاجبتهم انا والمهين كاره في خدمة المولى محب فيه

لما عاهدت الله على ذلك وشرحت صدري للوفاء به وجنحت الى الانفصال لبيت الله
 الحرام نشيدة املي ومرمي نيتي وعملي فعلق بي وخرج لي عن الضرورة واراني ان مؤازرته
 ابره التوب وراكنني الى عهد بخطه فسبح لعامرين امد الشواء واقتدى بشعيب صلوات الله عليه
 في طلب الزيادة على تلك النسبة واشهد من حضر من العلية ثم رمى الي بعد ذلك بقاليد
 رأيه وحكم عقلي في اختيارات عقله وغطى من جنائي مجلحه وحتا في وجوه شهبواته تراب
 زجري ووقف القبول على وعظي وصره هواي في التحول ثانياً قصدي واعترف بقبول
 نصحي . الى ان قال ومع ذلك فلم اعدم الاستهداف للشرور والاستعراض للمحدور والنظر
 الشزر المنبعث من خزر العيون شية من ابتلاء الله بسياسة الدهاء ورعاية منخطة ارزاق
 السناء وقلة الانبياء وعبداء الاهواء ممن لا يجعل الله تعالى ارادة نافذة ولا مشيئة سابقة
 ولا يقبل معذرة ولا يجعل في الطلب ولا يتلبس مع الله بادب . . .

هذا ما قاساه لسان الدين من ضروب النعم والنعم فعداً فرداً في القلب سيفه نمائه
 وغريباً في بلوانه وقد اكتفينا آنفاً بنقل . ا قاله فيه ابن خلدون صديقه وما قاله هو في
 شرح نكبته اوردناه بعبارتيهما الا قليلاً وان لورث هذه الترجمة تطويلاً وذلك لعلمنا
 بان انشاءها مما ينبغي احتذاه مثاله وجزالة الفاظها وجودة معانيهما مما يعز نظيره .

الميكروب

اعتراض اهل المذهبين الكيمائي والطراي على الحيويين

لم تزد الايام والتجارب مذهب الحيويين الا تحقيقاً وثبوتاً . فبعد ان نقرر باننا اذا منع
 اختلاط الميكروب بالمواد الآلية المنفعة لن تحصل فيها ظواهر الحياة والاختار حتى يرتفع
 حجر عنها فيحدث الاختلاف عندنا . سيرا كان الاثر بالادوية ان نقرر هذه